الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

مع علم النفس ـ السعادة والانسانية

بقلم الاستاذ: حسنى طه شكيان

والآن . . . لنتابع صفحات الرحمة البالغة ، والعزيمة الغلابة فى معالجة الضعف والنقص البشرى والفقر كالفرقة أس البلاء ، ومصدر الشقاء ، الجوع والعرى ، والضياع والبوار ، المرض والهزال ، الذلة والاتضاع ، العـــداوة والبغضاء ، اضطراب الأسرة والمجتمع ، قطع الطريق والاغتصاب ، الرقة والرشى . . . كل أولئك ثمرات طبيعيه للفقر ، . . الفقر فى المـــال والفقر فى العزيمة ، والفقر فى العاطفة الإنسانية المتكافلة الجانية . . . وهو هو سبب الجمود الذى أصاب الإنسانية ، ودفع الدول إلى التناحر المرير فى سبيل كسب مادى رخيص أو ثمين ، من أرض وخيرات ومتاع . . . استعماراً واستعباداً ،

وكم نال ذلك من علاج المصلحين والقادة ، وكم واجهه الأنبياء فى قوة وإصلاح ولن تجد ـ فى صدق ويقين ـــ صورة مثالية لعلاج الفقر المادى والنفسى ، وتزويد الإنسانية بزاد من القوى المادية والمعنوية كما تجد فى رسالة محمد الكريم الذى أحاط بالإنسانية وأعطاها من روحه دفعة كبرى إلى الكمال ، فكان بحق ـــ رحمة للعـــالمين ـــ إن الفقر عنده قرين الكفر . . . وسبيل المهانة والضعة فى المجتمع ، والمال بهجة الحياتين اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

« نعم المال الصالح للرجل الصالح . » والله يقول . « المال والبنون زينة الحياة الدنيا . » فعلى الفقير أن يتخلص جاهداً من ضعته وذلته ما استطاع ، وأن يعمل ما وسعه العمل فالعزيمة هى ســـبيل التحرر من كابوسه الثقيل ، والجهد

والتفكير سبيل تحصيل سعادة الدنيا والآخرة لأن يأخذ أحـــدكم فأسه وحبله فيحتطب (ويكسب قوته) خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه واليد العليا — فى شريعة محمد — خير من اليد السفلى — وتلك فطرة الحياة المستقيمة — والعمل سنته فى الحياة .. شريعة وجهاد ، وعبادة لله رب العالمين — ما أكل أحد طعاماً — قط — خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده وإن من بات كالا من عمل يده بات مغفوراً له . . .

ورآه الصحابة ينحنى فى حب وتقدير ليقبل يد عامل قد ورمت من كثرة العمل ، وقال : « تلك يد يحبها الله ورسوله . . . » ذلك أنها يد مكافحة فى سبيل العيش والحياة . . وإذا كان الناس يذنبون ويخطئون ، فإن من أبواب تكفير الخطايا السعى على المعاش . . وإنه لجهاد وحج وصيام وصلاة ، وقربى إلى الله . . إنه كل ذلك . وفوق ذلك . ولتستمع إلى صوت الحق من رحمـــة محمد العظيم وبره وإصلاحه :

« يا رسول الله .. أما ترى إلى هذا الشاب .. ما أحسن رواه وقوته لوجعله فى سبيل الله ؟ فقال مرشداً وموضحاً : إن كان قد خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على فتية صغار ، فهو فى سبيل الله . . » أجل إنه لجهاد كبير فى سبيل الله علاجاً للفقر والمهانة « يا رسول الله .. ما أحسن عبادة هذا الفتى ؟ قال : من يكفله . . قالوا كلنا . . قال كلكم خير منه . »

« يا رسول الله . . إنى أشتاق إلى الجهاد وليس لى راحلة فاحملنى إليه ؟

قال : هل من والديك أحد حى . قال : نعم . كلاهما حى . . قال : فتبتغى الأجر من الله . ؟

قال : نعم . قال : قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما . »

وجاءه الآخر فسأله عن حياة والديه فقال : أمى .. فقال له : قابل الله فى برها فإذا فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد . . » و « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يقوم الليل ويصوم » وفيض زاخر من البر بالناس ، ودفعهم إلى العمل مع اليقين بأنه عمل وعبادة وقربى قريبة إلى الله تفضل الحج والجهاد . . أو قل إنها الحج والجهاد ، .

لقد جعل السعى فى شئون الناس واصلاحها أفضل من العمرة فى سبيل الله . ولقد جعل الإصلاح بين الناس أجل عند الله من الصلاة والصيام والحج .

فكيف فالسعى فى سبيل اصلاح أسرته ، والبر باهله ، وكفهم عن الحاجة والمسغبة ، ورفع رأسه عزة بين الناس فلا يحتاج اليهم أعطوه أو منعوه . . . معهم أو ليس معهم ؟

تلك صحيفة من احساسه الكريم بالمشكلة ، ومن علاجها ودفع الناس الى مقاومتها من أقرب وأرجى طريق . فأين عمله هو . ؟

هو نفسه ضرب المثل فى كل أدوار حياته . كسب قوته بنفسه قبل البعثة وبعدها ، فرعى الغنم على قراريط لأهل مكة ، وقال . ومامن نبى إلا رعى الغنم ، وتاجر لنفسه وللناس ولعمه ولخديجة قبل الزواج وبعده ، وتبرأ من العجز والكسل واستعاذ بالله من شرورهما وشرور الفقر والعيلة والضعف أمام الناس . فالمسألة فى رسالته تهريق ماء الوجه ، حتى يأتى يوم القيامة ، ولا مزعة فى وجهه تكسوه . من فرط ما أضاع حياءه ما دام على العمل فلم يعمل .

وللمرء أن يكسب من أبواب الخير فكل وسيلة كريمة لا يحده قيد ، فالأغنياء هم أصحاب الإصلاح وعمد السعادة فى المجتمع . بذله الله لهم بكل حسنة ٧٠٠ ضعف

بيد أن ثمة جانبا مشكلا من القضية . حينما يكون الفقر بلاءا هابطا ، فى كارثة مالية فلا تقيم الإنسان أوداً ، أو لا تترك له بقية يعمل فيها أو حين تنسد أبواب العمل فالفقر حينئذ حدث مقيم لا سبيل إلى إزالته بعمل أو جهد ، ولا مال الآن .. ولا ذنب للفقير فيما حل به . . فكيف الصنيع ؟ !

وهنا تتجلى عواطف رسول الإنسانية النبيلة التى تسع الوجود كله فلا تضيق بهشكلة ما . لو كانت هذه المشكلة التى جنحت من هولها الإنسانية .

الفقير حينئذ امتحان لصاحبه . وامتحان للمجتمع البشرى — صغيره وكبيره — للناس وللدولة وللفقير دعوة عند محمد ، والمجتمع الذى يعيش فيه نداء وعمل وللدولة خطة ونظام . على الفقير حينئذ أن يصبر متحينا الفرصة جهد الطاقة ، فليس بجديه سخط على الدنيا وما فيها ، ولن يخدمه فى محنته تلك ، كراهية المجتمع وإغضابه والهجوم عليه بسرقة أو اغتصاب أو قطع للطريق ، كما لا يجديه

استكانته ، وانطلاق إلى الأبواب يقرعها فى عنف وإلحاح . . . مسألة فى رفق ؛ للعمل فى حرص ، واستعانة بالله ليفتح أبواب الرحمة فلا يملكها سواه .

نداء المجتمع للتكافل :

وللمجتمع عنده نداء وعمل . . يا أصحاب الثراء واليسار إن للفقراء عند الله دولة يوم القيامة فمن أراد أن يربح الآخرة فليبر الفقراء ، ومن أراد عزاً عند الله فليعز عياله ، وعياله الفقراء ، ومن أراد تجارة مع الله فليبذل له العطاء . . عند خلقه من الفقراء وعند جنوده من اليتامى والمساكين والعاجزين والعاطلين من المكرهين على هذا البلاء .

وخير العطايا فى شريعته حينئذ — ما كانت عند الجاهلية : إغاثة لهفان ، وتفريج كربة فغوث اللهفان ، وإقالة العاثر ، وإكساب الأخرق الذى لا يحسن عملا — عمل يطفىء غضب الرب ويرفع الدرجة فى ميزان الحق .

وغوث اللهفان من جائع أو خاسر فى تجارته أو صاحب كارثة ما — هو ما يهتم به الرسول كثيراً ليتمكن من سد خلته فلا يتسخط على المجتمع والأقدار فيخسر الدنيا والآخرة ، وليتمكن من بداية حياته من جديد . . وهو شىء يحرص عليه الرسول الإنسانى الكريم .

فليتقدم له الناس من أهله وجيرانه ومعارفه بمعونة عاجلة — قرضاً أو صدقة — والقرض أولى عنده — تحبيباً — للقرض ، وحفظاً لماء وجه الملهوف ، وحفظاً لأموال الناس . . . يقول الرسول الكريم : وجدت مكتوباً فى الجنة — ليلة الإسراء والمعراج — القرض يفضل الصدقة بثمانية عشر ضعفاً — وفى رواية بثمانين ضعفاً — فسأله الصحابة فكيف ذاك ؟ قال : إن المقترض إنما يقترض عن حاجة ، أما الصدقة فقد تعطى لغير ذى حاجة . . » وسد الحاجة أولى أن تجاب . . .

وغوث اللهفان بالقرض أدعى حينئذ لمزيد من العطاء ما دام مضموناً ، وأولى حينئذ أن يطوع له سبيل العودة لسيرته الأولى فى عمل وربح . . .

ولنستمع الآن لبعض نبرات صوته الكريم يعالج المشكلة كلها . . رافعاً قدر

الأغنياء البارين بالناس الراحمين أحدوثة الدنيا وحسن ثواب الآخرة » أحسن الإسلام : أن تطعم الطعام ، وتفشى السلام ، وتصلى بالليل والناس نيام . . »

« الخلق عيال الله ، وخير الخلق عند الله أنفعهم لعياله . . . خير الناس أنفعهم للناس » فليكسب الناس ما يشاءون وليبروا الناس منه ليكونوا خير خلق الله فى الدنيا والآخرة .

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله . »

« شر الولائم وليمة يدعى إليها الأغنياء ولا يدعى إليها الفقراء . . »

« صدقة السر تطفىء غضب الرب . . » وبر الناس عنده تجارة مع الله ومعاملة مرفوعة إليه :

« إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد الفقير » :

ونار الدنيا تتطلب المجتمع الفاشل غير المتكافل ، ونار الآخرة أولى بالممسكين والبخلاء حتى إن عين السماء لترعى الفريقين رعاية خطيرة . ترعى الكرماء بالحب والتقدير ، وترعى البخلاء باللعنة والعذاب .

« ما من يوم ينشق فجره إلا وملكان يناديان .. اللهم أعط منفقاً خلفاً . وأعط ممسكا تلفاً » .

« أيما بلد باتت وفيها جائع فعليها لعنة الله . . . »

« السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار . . ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار »

فليتق الناس النار ولو بشق تمرة إذا ملكوها غير زيادة : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » فإن يكن للناس مزيد من الفضل فليسمعوا نداء محمد العظيم :

« من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له ، قال أبو سعيد الخدرى — راوى الحديث — فما زال الرسول الكريم يذكر من أبواب الخير حتى ظننا ألا حق لأحد منا فى الفضل . »

حسنى طه شكيبانه